

حجاب المرأة السورية في الألفين الثاني والأول قبل الميلاد

سميرة مصري^٥

مقدمة

قليلاً ما لاحظ الباحثون في دور المرأة السورية ومكانتها، أنها تضع في غالبية التصاوير المنحوتة حجاباً أو غطاء رأس، سواء امرأة عادية كانت أو إلهة أو كاهنة أو ملكة. فكثرة استعمال الحجاب^(١) وشموليته يبيّن لنا أهميته في المجتمع القديم. ذلك بأنّ النساء من مختلف الطبقات الاجتماعية تضعه على رأسها لأسباب مختلفة كما سنبيّنه لاحقاً. ويقول الأب دي فر De Vaux الدومينيكاني في معرض شرحه نقشاً تدمرياً قليل البروز Bas-relief (الشكل ١: أطلب آخر المقال) في مقال عن غطاء رأس نساء الشرق القديم: «إنّ العربيات كنّ يضعن الحجاب في بداية قرننا الحالي». وقد استند في نظريته هذه إلى أنّ جميع نساء النقش يضعن حجاباً تلبسه المملعات في سوريا حتى يومنا هذا^(٢).

(٥) مجازة في الثنيات الأثرية من كتيّ Ecole des Hautes Etudes en Sciences Sociales.

Sociales، وتعمل الآن في منظمّة اليونسكو العالمية.

(١) تعني بكلمة حجاب كلّ تعاضل يحجب الرأس جزئياً أو كلياً كالخمار والنفاب والشر والبرقع.

(٢) DE VAUX, O. P., «Sur le voile des femmes dans l'Orient ancien», A propos d'un bas relief de Palmyre, *Revue Biblique* 44, Ecole Pratique d'Etudes Bibliques, 1935, p.p. 397-412.

اِكْتِشَفَ هذا النش القليل البروز في هيكل بال Bèl التدمريّ، وهو جزء من الفوائم الحجرية العرضية التي تصل الجدار بالأعمدة. ويعتبر المنهد المعسّر من أكثر مشاهد المجموعة غموضًا. فهو يمثل على ما يبدو تطوّرًا لأشخاص يتوجّهون إلى الهيكل. وعلى الرغم من تحقّم النش، نلاحظ في الجزء المهشّم امرأة جاثية. وعلى يمين الطائفتين ويسارهم مجموعتان من النساء إحداهما متراجعة وكأنّها مجموعة مشاهدات. لقد درس الأستاذ سيريج Seyrig جميع عناصر النش، فلقت انتباهه تفصيل دقيق وهو أنّ النساء محجّبات حجابًا كاملاً كالمسلّمات المتعصّبات. ويُعتبَر هذا النش المدهش فريد من نوعه في الفنّ التدمريّ وفي فنّ آسيا القديمة، ويستحقّ الدراسة على ما يدور.

ما هي أسباب تغطية الرأس إذا؟ أمي اجتماعية أم دينية أم مناخية أم مجرد سرعة في عالم الأزياء؟ الافتراضات هنا كثيرة، إذ يمكن أن يكون السبب اجتماعيًا كالزواج أو الحزن (الحداد)، أو علامة تكريس الكاهنات، كما هو حال الراهبات في أياثنا، أو الحماية من عناصر الطبيعة، أو نمط أزياء أتى من بلد مجاور. لذلك سنبحث عمّا إذا كان للحجّاب، كما رأينا في بداية عصرنا، جذور في العصر القديم.

منذ العصور القديمة الأولى، وفي جميع أقاليم الشرق الأوسط، نلاحظ وجود ثياب وأدوات زينة كمالية محدّدة للنساء. ويختلف غطاء الرأس من حضارة إلى أخرى، إذ إنه يبرز غنى القدماء وتفنّنهم في طريقة لبسهم. ولكي نميّز عند هذه الشعوب طريقة اكتسابها *Garde-robe* حيث غطاء الرأس (الإزار) هو جزء منه، علينا أن نفحص بدقّة جميع الملابس المعصّرة حفراً ونحتاً. فلنبدأ مسيرتنا انطلاقاً من حضارات الألف الثاني قبل الميلاد في سورية، إذ إنّها بداية ضرورية لفهم حضارات الألف الأول. وسنعالج موضوع الحجاب معتبرينه زينة للثياب، وضرورة تفرّضها التقاليد على المرأة، وحاجة دينية واجتماعية، أو حتى مناخية تحرّلت عبر الزمن من الاحتياج إلى التقليد والتراث. ومن الضروريّ أيضاً أن نعرف مناخ سورية في العصر القديم في دراستنا الحجاب لكي نستطيع تحديد

الظروف الطبيعية المحيطة بحياة المرأة القديمة. فالمناخ يفرض طريقة في اللبس والتحجب لحماية الجسم والرأس من العوامل الطبيعية كالبرد والحر والرياح والتراب والشمس.

كانت سورية نقطة التقاء حضارات الشرق الأوسط، وفيها اختلقت الأقوام منذ القدم. لذلك فإنها تأثرت بالشعوب الأجنبية المحيطة والتي تستعمل الحجاب بكثرة كالحثيين واليونانيين والمصريين وسكان ما بين النهرين. هذا يشرح سبب التغيرات التي طرأت على شكل غطاء الرأس في سوريا. سنعمد في دراستنا هذه على الوثائق القديمة وأبحاث التنقيبات الأثرية، لكي نبين الفوارق في استعمال المرأة الحجاب.

ما هو الحجاب؟

الحجاب هو أحد أقدم قطع الثياب عند المرأة. وقد ارتبط طوال قرون كثيرة بالأناقة والحشمة والوضع الاجتماعي من زواج وتزويج^(٣). وكان له في كل دين رمز معين، ولا زال هذا الرمز قائماً في بعض الديانات حتى يومنا هذا. بشكل عام، تتحجب المسلمة حشمة أمام الرجل: بما أنّ الشعر وسيلة زينة تبرز المرأة من خلالها إغراءاتها الجنسية فثير شهرة الرجل، فمن الطبيعي أن تحجبه عن الغرباء. لهذا الاعتقاد بعض الصدى عند بولس الرسول في رسالته إلى تلميذه طيموثاوس: فوكذلك ليكن على النساء ثياب فيها حشمة، ولكن زيتين بحياء ورزانة، لا بشعر مجدول وذهب ولؤلؤ وثياب فاخرة... (١: ٢). وتغطي المرأة المسلمة في بعض البلدان جزءاً من وجهها فلا يظهر منه إلا العينان، وتغطي في بعضها الآخر وجهها بالكامل كما هو الحال في سوريا، خصوصاً في جزتها الشمالي.

الحجاب إذاً، أو غطاء الرأس، هو قطعة قماش توضع على الرأس أو على أي شيء يزيته كالتاج والتبعة والإكليل المرصع. وتشمل دراستنا الكالاثوس Kalathos وهي كلمة يونانية أطلقت في الألف الأول على السنة

YARWOOD Dorcas, *The Encyclopaedia of world customs*, Ed. Charles (٣) Scribner & sons, N. Y., 1983, pp. 72-74.

المفضاة بالقماش الفضفاض. كما تشمل الكلافت Klaf، وهو اسم مصري أطلق في الألف الثاني والأول قبل الميلاد على الشعر المستعار المصنوع من عناصر تزيينية مختلفة كالتماش والفضة والذهب والمعادن. بهذا يصير الحجاب أيضًا تزيينة شعر نسائية من القماش الخفيف أو النسيج الثقيل، تغطي الرأس أو توضع على عمامة أو تبة أو إكليل مرصع، وتسدل أحيانًا على الكتفين والذراعين والظهر، ويمكنها أن تصل حتى الركبتين أو الكاحلين. هذا ما نجده عند البدو في صحراء سورية.

صنِعَ الحجاب قديمًا من الصوف والكتان، وبعد ذلك استُفِيعَ التطن والحريير. وحين تمكّن الإنسان من تحويل هذه المواد إلى أقمشة نصف شفافة وخفيفة، صار الحجاب فضفاضًا. وهناك أنواع أخرى من الحجاب تضاف إليها الخيوط المعدنية أو ما شابه ذلك، فيعير القماش صلبًا كما هو الحال في النيجان والنجمات. ويصف هنري لوتز Henry Lutz حجاب المرأة السورية قائلاً: «إنها تضعه على رأسها وتبته إلى تبة أسطوانية من القماش Couvre - chef cylindrique فيسدل عموديًا وراء ظهرها وعلى ثوبها. وهو مزين بالأهداب وعريض حتى إنه يغطي في بعض الأحيان الجسم كله»^(٤).

كان التماش الرقيق خالي الثمن، لهذا استعملت نساء المجتمع الراقى في سوريا لتغطي به شعرها. وفي الشرائع الآشورية، نجد أن من يفضح أمر عاهرة يال ثيابها مكافأة، مما يشير إلى أهمية التماش وغلاء ثمنه. إن صمويات تغطي آثار الحجاب السوري قبل الميلاد متعددة. فالتقنيات الأثرية في سوريا وبلاد ما بين النهرين لم تعثر على قطعة قماش واحدة، في حين حافظت القبور المصرية على كمية هائلة من الأقمشة بتصل الجثث المختطة. ولا يمكننا تحديد تاريخ الحجاب بحسب ظهوره في النقوش الأثرية لأن تحديد هذا التاريخ بدقة صعب جدًا، ويصل الفارق أحيانًا إلى مئتي سنة كما هو حال تمثال الإلهة عشتار المكتشف في

LUTZ H. *Textile & Costumes among the peoples of the Ancient Near East*, (٤)
Leipzig, 1923, p. 172.

تل حلف. ومن الصعوبات أيضًا، عدم وجود فنّ سوريّ قديم أصيل. فالفنّ السوريّ هجين، أخذ عن السومريين والبابليين والآشوريين عناصر التعبير الفنّي وطريقته. ولم يهتم الفنّان السوريّ بإظهار ثنابا النماش وتموجاته، واكتفى برسم الحجاب على الرأس بطريقة تجريدية، لأنّه اعتنى بإبراز الوجه دون سواه من أجزاء الجسم. لذلك يصعب علينا أن نميّز الحجاب في النقوش من القبعات أو الأكاليل المرصعة. ستقتضى تاريخ الحجاب إذًا عبر طرق متعدّدة منها: الألواح الحجرية والتمائيل والنقوش القليلة البروز والأختام.

المعطيات الأثرية

اللوحات الحجرية

تكشف لنا اللوحات الحجرية الأربع عشرة المكتشفة في آشور الشرائع الآشورية. وهي قاسية ومتشدّدة في موقفها تجاه المرأة التي تُعتبر ملكية الرجل الخاصّة، سواء أباهما كان أم زوجها. فمن الناحية الاجتماعية، تأمر هذه الشرائع النساء بارتداء ملابس خاصّة للخارج. وهذا يشرح أصل التحجّب وأسبابه. ويفضل اللوحات الحجرية الآشورية نستطيع تتبع تطوّر الحجاب منذ الألف الثاني قبل الميلاد. فاللوحة آ وهي أحدثها، يعود تاريخها إلى ما بين القرن الثامن عشر والخامس عشر قبل الميلاد، وفيها تحديد مكانة المرأة قانونيًا. إنّها تتناول مسألة الحجاب بمثابة علامة تمييز اجتماعية. فالمجتمع الآشوريّ ينقسم إلى ثلاث طبقات^(٥): الأحرار السادة (أويلو)، والأحرار العاديين (أشور أجاو)، والعييد (أرداني). وتعالج الشرائع موضوع تحجّب نساء الأحرار، لأنّ القانون يخصّ المواطنين الأحرار، ولا يأتي ذكر العييد إلاّ عرضًا.

اللوحة ٤١ آ^(٦)

(العمود الخامس):^{٤٢} النساء المتزوّجات أو زوجات (الأحرار

GARDASCIA Guillaume, *Les Lois Assyriennes*, Ed. du Cerf, 1969, pp. 53-54. (٥)

GARDASCIA Guillaume, *les lois Assyriennes*, Ed. du Cerf, 1969, pp. 201-202. (٦)

السادة (؟) ^{٤٣} أو (الأحرار العاديين (؟)) ^{٤٤} اللواتي يخرجن إلى الشارع ^{٤٥} (لا تكون رؤوسهن مكشوفة) ^{٤٦} . بنات الأحرار السادة (....)، ^{٤٧} (سواء كان حجاباً ^{٤٨} أو ثوباً أو إزاراً (؟))، ^{٤٩} تتحجبن، ^{٥٠} (ولا تكون) رؤوسهن (مكشوفة). ^{٥١} سواء كان (....) ^{٥٢} أو (....) ^{٥٣} أو (....) ^{٥٤} لا تتحجبن (ولكن) ^{٥٥} - ^{٥٦} يوم تذهبن لوحدهن في الشوارع، تتحجبن، ^{٥٧} - ^{٥٨} و(الضرة) السيئة التي تذهب في الشوارع مع سيدتها ^{٥٩} تتحجب. ^{٦٠} السيئة التي تزوجها رجل ^{٦١} تتحجب في الشوارع، ^{٦٢} لكن غير المتزوجة ^{٦٣} (يكون) شعرها مكشوفاً في الشوارع؛ ^{٦٤} ولا تتحجب، ^{٦٥} العاهرة لا تتحجب ^{٦٦} ويكون رأسها مكشوفاً.

^{٦٨} - ^{٦٩} من يرى عاهرة محجبة يعتقلها (؟)؛ ^{٧٠} يأتي بشهود ^{٧١} (و) يحضرها إلى مدخل القصر، ^{٧٢} لا تؤخذ منها حليها، ^{٧٣} - ^{٧٤} (وإنما) يأخذ من اعتقلها ثيابها، ^{٧٥} وتضرب خمسين ضربة عصا، ^{٧٦} ويسكب القار على رأسها. ^{٧٧} - ^{٧٨} ولكن إذا رأى رجل عاهرة محجبة وتركها تذهب (حرة) ^{٧٩} (و) لم يأت بها إلى مدخل القصر، ^{٨٠} هذا الرجل، ^{٨١} تنقب أذناه، ^{٨٢} ويمرر جبل عبر (الثبين) (و) يُعقد عند رقبته، ^{٨٣} ويعمل شهراً بالأشغال الشاقة لأجل الملك، ^{٨٤} لا تتحجب النساء العبيد ^{٨٥} من يرى عبدة محجبة ^{٨٦} يعتقلها؛ ^{٨٧} ويحضرها إلى مدخل القصر؛ ^{٨٨} فتقطع أذناها، ^{٨٩} (و) الذي اعتقلها يأخذ ثيابها. ^{٩٠} - ^{٩١} لو رأى رجل عبدة محجبة وتركها تذهب (حرة)، ^{٩٢} ولم يعتقلها ^{٩٣} (و) يأت بها إلى مدخل القصر، ^{٩٤} - ^{٩٥} (إذا) اشتكى عليه (وإذا) تم الاقتناع من ذلك، ^{٩٦} يضرب بخمسين ضربة عصا، ^{٩٧} وتنقب أذناه؛ ^{٩٨} ويمرر جبل عبر (الثبين) ^{٩٩} ويُعقد عند رقبته؛ ^{١٠٠} ومن أخبر عنه ^{١٠١} يأخذ ثيابه؛ ^{١٠٢} (وهو) يعمل شهراً بالأشغال الشاقة (لأجل الملك).

يذكر لنا هذا النص قواعد شديدة الصرامة والوضوح عن التحجب لا مثيل لها في الشرائع الشرقية الأخرى. ومع ذلك، هناك نصوص أكدته

وتلمودية تأمر على ما يبدو بتحجب المتروجات. فعلى سبيل المثال، تغطت رقعة حين حضر إسحق: «وقالت للخادم: «من هذا الرجل القادم في الحقل للقائنا؟» فقال الخادم: «هو سيدي»، فأخذت الحجاب واحتجبت به» (سفر التكوين ٢٤: ٦٥). وحضرت سوسنة أيضًا أمام مجلس الشيوخ محجبة: «ولما كانت مبرقة، أمر هذان الفاجران أن يكشف وجهها ليشبها من جمالها» (سفر دانيال ١٣: ٣٢). وتحجبت تامار لترني من دون أن تُعرَف: «فخلعت ثيابَ إرمالها من عليها وتغطت بالخمير واحتجبت به، وجلست في مدخل العينين على طريق تمنة...» (سفر التكوين ٣٨: ١٤). وفي زمن الأنبياء، انتقد أشعيا بنات صهيون للبيهن الحجاب الفاخر: «في ذلك اليوم، يزيل السيد زينة الخلاخل والشموس والأهلة، والأشنان والأساور والرُّعْل والمصائب... ويكون لهنّ التثني بدل الطيب، والحبل بدل الزنار، والقرع بدل تجعيد الشعر، وحزام المنح بدل الوشاح، والكفي بدل الجمال». (سفر أشعيا ٣: ١٨-٢٤).

اللوحة ٤١ آ (٧)

(العمود السادس) ^١ إذا أراد رجل أن يحجب (الضرة) الية، ^٢ فليحضر خمسة من أقربائه أو ستة ^٣ وليحجبها أمامهم، ^٤ ويقول: «إنها زوجتي». (فتصير عندئذ زوجته. ^٦ - ^٧ الية التي لم تحجب أمام أفراد ^٨ - ^٩ ولم يقل الزوج: «إنها زوجتي» ليست زوجة. ^{١٠} (وتظل) سية. ^{١١} - ^{١٢} إذا مات رجل وإذا لم يكن لزوجته أبناء، فإن أبناء سبائاه ^{١٣} هم أبنائها وينالون (حقّ الخلافة).

ترجمنا في هذا النص كلمة «أسيرتو» بـ «الضرة الية»، لأنها تُقال للمرأة المحبوسة في بيت الحريم أو لية الحرب. وتحجب «الأسيرتو» حين ترافق سيدتها في الشوارع (اللوحة ٤٠ أ)، لا لمنع الية امتيازًا خاصًا، بل لتكريم الزوجة. لأنّ على الية ألاّ تتحجب حين تخرج وحدها. ولكي تُرْفَع الية إلى مقام الزوجة، يفرض الرجل عليها

الحجاب أمام شهود. مما يدل إلى أن التحجب يعبر عن الزواج. فالسيّة المحجّبة في هذه الحالة لم تعد عبدة، بل زوجة.

نستج من معنى النصّ العامّ أنّ على نساء أشور النيلات تغطية رؤوسهنّ حين يظهرن للناس، في حين أنّ على العبيد والعاشرات أن يكشفن رؤوسهنّ تحت طائلة العقاب الشديد. ويُجبر الشهود على الإبلاغ عن أيّ مخالفة لهذه الشريعة. وإذا امتنعوا عن التبليغ ينالوا العقاب الشديد. فالحجاب إذا يخصّ المتزوجات وبنات الأحرار، سواء أمتزوجات كنّ أم لا، أي النساء الأحرار. يبقى علينا أن نُشير إلى أنّ النصّ (٤٧ آ) يذكر أمثلة عن الثياب التي يمكن لنساء الأحرار أن ترتديها لتغطي شعرها: حجاب «سارستو» أي الساري، الشال، ثوب «لويوستو». وتُقال كلمة «قدستو» للفنّاء المكرّسة لخدمة الهيكل. وهي ليست ملكاً لأبيها. فحين تبدأ في خدمة الهيكل تكفّ سلطة أبيها عليها، لكنها تصبح ملكاً لزوجها إذا تزوّجت، عندئذ عليها أن تتحجّب. إذا، لا تتحجّب المكرّسة إلا إذا تزوّجت. ولا نعرف شيئاً عن عنايتها في حالة مخالفتها القانون.

في النهاية، يمنع تحجّب المكرّسة العازبة «قدستو»، والزانية العادية «حريمتو» والعبدة «أسيرتو». فيصير الحجاب بذلك واجباً مفروضاً على النساء المرموقات، وخصوصيّة تُعرفن من خلالها. ولا يشمل منع التحجّب إلا الزانية والعبدة.

الأختام الأسطوانية

ربّما كانت الأختام الأسطوانية السورية شاهداً ضعيفاً لنشاطات مختلفة. ويبدو أنّ أختام إيبلا الأسطوانية مستوحاة من تقليد بلاد ما بين النهرين، لأنّها مستوردة من ورشة القصر. أمّا أختام ماري الأسطوانية فهي شاهد مهمّ لحضارة تتعلّق بحاضرة بلاد ما بين النهرين، ولها فرائدها الخاصّة. لكنّ المشاهد المحفورة على هذه الأختام صغيرة جداً، ولا تستطيع إبراز الخطوط الرفيعة التي تظهر أشكال الحجاب بدقّة، أو تسمح بتحديد طبيعة غطاء الرأس. لهذا سنقصر دراستنا على ختمين أسطوانيين. (الشكل ٢)

إنَّ الختم الأسطوانيَّ الأوَّلَ يمثُلُ امرأةً بصورةٍ جانبيَّةٍ رافعةً يديها تلبس ثيابًا وتضع قَبعةً على رأسها أو حجابًا. وهي تقف تحت قوس من مفاتيح الحياة (صيفةٌ مصريَّة). عثر على هذا الختم في تل عطشانة بأنطاكية^(٨).

أمَّا الختم الأسطوانيُّ الثاني فيرقى تاريخه إلى حوالي ١٤٥٠ قبل الميلاد بحسب تصنيف الأستاذ بورادا^(٩). وفيه شكل نسائيٌّ بالقرب من شجرة مقدَّسة، ويعلو الرأس ما يشبه الحجاب، وأمام الشخص مفتاح الحياة (صيفةٌ مصريَّة).

يكمن التشابه بين الختمين الأسطوانتيين في شكل الحجاب ووجود مفتاح الحياة المصريِّ. من هنا نجد أنَّ السوريتين تبنوا الصيغ المصريَّة، خصوصًا في أختام تل عطشانة التي تزوِّدنا بنماذج المشاهد المصريَّة الأولى في الفن السوريِّ.

الأواني

مورست في البيانات السوريَّة القديمة طقوس كثيرة للماء، من أجل استقرار المطر وخصوبة شعب يهدِّده الجفاف باستمرار، فيجد في الماء ضمانًا وأمانًا. لذلك صار الإناء، وهو وعاء الماء، رمزًا يُشير إلى قوى الخصب عند الساميين، وارتبط في غالب الأحيان بعبادة الإلهة الكبيرة عند الفينيقيِّين والسوريِّين، وعُبر من خلاله في بعض الحالات عن صورة الطبيعة المائيَّة والخصب الإلهيَّتين^(١٠). إنَّ الأنية الخزفيَّة الملونة التي عثر على شكل رأس امرأة تكوِّن مجموعةً فنيَّةً معروفةً لكثرتها وتنوعها، ويعود تاريخها إلى العصر البرونزيِّ الحديث. وقد انتشرت في القرنين الرابع

COLLON D., *The Seal Impressions from Tell Atchana/Alalakh*, Ed. Verlag (٨)
Burton & Bercker Kevelaer, Germany, 1975, p. 79.

PORADA E., *Corpus of Ancient Near Eastern Seals*, Ed. The Committee of (٩)
Ancient Near Eastern Seals, U.S.A. 1948, pl. CXL, V., p. 127.

SOYEZ Brigitte, «Note sur le culte du vase en Syrie», *BERYTUS*, (١٠)
Archaeological Studies, Volume XXIV, Ed. The American University of
Beirut, Beirut, 1975-1976, op. cit., pp. 43-44.

عشر والثالث عشر نبل المبلاد في قبرص وسوريا وحتى في بلاد ما بين النهرين. ووجد كثير منها في أوغاريت وأشور. لقد ضيّعت هذه الآنية على هيئة وجوه نسائية تلبس تاجًا أسطواني الشكل مغطى بالتماش أو بعمامة، فتأخذ بذلك شكل طاسة. ويظهر في بعض الأحيان شعرًا مموجًا على الجبين أو مجتمعا في عقصة.

ومن آنية تل مردوخ (ايلا) واحد يعود تاريخه إلى العصر البرونزي الأوسط الثاني (الشكل ٣). هو طاسة حوافها بيضة، وتزوّف أطراف تسريحة الشعر قواعد الثلاث. ويبرز في هذا الإناء أهم عنصر تصويري للنمط الهاتوري، إذ يملو الرأس عمامة أو حجاب معقد، تزينه من الداخل عصائب ذات أشكال إهليلجية. ويظهر في هذه التسريحة التأثير المصري، مع أن الإناء من إنتاج الحضارة السورية في الألف الثاني قبل الميلاد. وتجدر الإشارة إلى أن الأوساط الثقب السورية وبلاد ما بين النهرين تميّز بالتسريحة الهاتورية التي تعلوها عمامة وحجاب، الإنيّة مكشوفة الوجه. ولم يخف تعنيف الشعر الهاتوري بعد العصر البرونزي الأوسط، لأننا نجده غالبًا تحت الحجاب أو مغطى بقبعة تماشية، على علب التبرج والأواني. كما تزوّف الأواني ذات الرؤوس النسائية مجموعة مكرّسة لعبادة الإلهة عشتار التي تُصوّر عارية أو في صدد رفع الحجاب.

التمائيل والرسومات الملونة

لم يتطوّر نحت الكتل الحجرية كثيرًا في العالم الفينيقي، ولا نجد في العالم القرطاجي إلا بعض الآثار المبعثرة منه. ومع ذلك نجد في قرطاج رؤوسًا صغيرة من الحجر الكلسي ذات تسريحة شعر مصرية، يعود تاريخها إلى نهاية القرن السادس ق.م. كما اكتشف الأستاذ فون أوبنهايم في تل حلف^(١١) منحوتات حجرية كثيرة، تصوّر شكلًا بسيطًا

(١١) تل حلف إقليم واسع شمالي بابل، كان مركز تقاطع طرق القوافل الذاهبة من الشرق إلى الغرب ومن الشمال إلى الجنوب. والمدينة هي مكان إقامة الملك قبارة، وقد احترقت حوالي السنة ١١٠٠ ق.م.

للحجاب^(١٢)، كتمثال الإلهة عشتار الواقفة، وتمثالين للإلهة نفسها جالسة على عرشها، ولأكبر التماثيل ذي الشكل المكعبي التام، وهو يمثل إلهة ذات أنف كمثقال العصفور ورأسها منحوت بدقة. وهناك تمثال آخر للإلهة جالسة على عرشها بشبابها العادية. من الملاحظ أن بعض التماثيل مزينة بخطوط بيّنة متوازية، تنال على الجسم من الطرف الأمامي. كما نجد على الوجه نقاطًا وخطوطًا أخرى تمثل العين والحجاب.

استعمل الآشوريون الرسم الجداري بكثرة، ولكننا نادرًا ما نجد في آشور تصويرًا للمرأة رسمًا ونحتًا. فتقاليد حرّم النساء تمنع إظهارهن. ومع ذلك نجد في إحدى الرسومات بعض النساء بين جماعة الأسرى، ترن في مشهد جني الغنائم (الشكل رقم ٤). وتظهر النساء في لحظة أسرهن يشاهدن إعدام رجالهن الوحشي، إنها مرحلة الانتقال من حالة المرأة الحرة إلى السبية. لذلك رسمت النساء في الحالة الحرة، أي مغطاة بحجاب يحمي الرأس والكتفين وجزءًا من الثياب. والحجاب مزين بأهداب متدلّية على الثوب وترك الوجه مكشورًا، لكنّه يغطي الشعر بكامله حتى إنه يخفي الجداول والحلي.

النقش الحجري البارز

لم تظهر المرأة كثيرًا في نقوش الحثيين النافرة طوال الألف الثاني قبل الميلاد. كانوا يصورون الإلهات والملكات محجّبات بحجاب نجده أيضًا في نقوشهم للألف الأول ق.م. هذا ما نلاحظه من مقارنة نوافر القرن الرابع عشر في بلدة ألاصة هويوك Alaça - Höyük التركية بنوافر القرنين العاشر والثاسع في بلدي مالطية وكركميش. فنقش الملكة أمام الإلهة عشتار بملاطية، ونقش «تطواف طقسي» بكركميش بصوران ملابس ووضعيات وشعارات وخصوصيات نمطية ثلاثم عقلية العصر، ويبرران في الآن نفسه تقليدًا قديمًا. ويعود تاريخ أحدث الابتكارات الفنيّة وأكملها

OPPENHEIM B. V., «TELL HALAF, La plus ancienne capitale soubaréenne (١٢) de Mésopotamie», SYRIA 13, 1932, pp. 242-254.

إلى القرن الثامن قبل الميلاد، إذ تمّ العثور في مرعش على عدّة نماذج لنبساء محجّبات. ففي مشهد الوليمة العائليّة (الشكل رقم ٥)، تضع الأمّ وابنتها حجابًا مزينًا بأهداب يكشف الوجه والأذنين، ويغطّي الكتفين وينسدل إلى ما تحت الركبتين، على نحو سيّة الرسم الآشوريّ الجداريّ. ونجد الحجاب نفسه في نقشين حجريّين، الأوّل لامرأة تغزل وهي جالسة أمام كاتب، والثاني لسيدة جالسة وتحمل ابنتها الصغيرة على ركبتيها. والحجاب في النقشين تستعمله المديّات اليوم في سورية، ويطلق عليه اسم العباءة.

وبما أنّ تصوير المرأة قليل في الفنّ الآشوريّ، فإنّ النقش القليل البروز الذي يعود تاريخه إلى القرن السابع قبل الميلاد، يعطينا معلومات في غاية الأهميّة. فالنقش وليمة انتظار يتكئ فيه الملك آشور بانيبال على سريره، وتجلس أمامه امرأة قد تكون زوجته بأدب على عرش عند قدميه، وهي مغطّاة بشال مزركش بتخريم يغطّيها كاملة، تاركًا كمّي الثوب الضيّق الطويلين يظهران. أما الرأس فمزين بناج مُسنن. أتري من حتّى سيّدات المجتمع الآشوريّ أن يتزيّن مثل الفينيقيّات والحثيّات بقلنسوة أسطوانية تزيد من طولهنّ ووقارهنّ؟ لا نستطيع الاعتماد على المنحوتات لنؤكّد هذا. ومع ذلك، بما أنّ القانون الآشوريّ يمنع المرأة عن الخروج من دون حجاب يمكننا الافتراض بأنهنّ استعملن تصفيقة شعر واسعة الانتشار في الشرق، وغطّين جزءًا من تاجهنّ القماشيّ بحجاب طويل يستطعن أن يسدلنه على الوجه.

لا بدّ لنا أيضًا من ذكر نقش على تابوت حجريّ في صيدا من القرن الرابع ق.م. بصوّر ثماني عشرة امرأة محجّبة وهنّ في وضعيات حزن مختلفة. وشاهد قبر في أمّ العمد أو (أمّ العواميد)، منذ القرنين الرابع والثالث قبل الميلاد، يصوّر امرأة فينيقيّة تلبس ثوبًا طويلًا له ثنيات، وتغطّي شعرها وغاليّة جسمها بحجاب، وتمسك أطرافه بيدها اليسرى. (الشكل رقم ٦).

انتشرت صناعة الدمى الطينية في سورية وفلسطين. وسبب ذلك سهولة الحصول على المواد الأولية اللازمة ورخصها وتوفرها. وتلبي الدمى الطينية حاجات المجتمع القديم الاجتماعية والدينية. فهي تستعمل في التقاديم والقرايين والهبات التي توضع مع الموتى في قبورهم.

تم العثور على دمي من القرن الثاني عشر حتى الرابع ق.م. على الشاطئ الفينيقي في أخزيف Akhziv وصيدا وصور، ومع أنها صُنعت محلياً، نجد فيها الطابع المصري. أما الشعر فهو مغلى بحجاب ولا يظهر منه إلا أطرافه. وفي إيلا دمي طينية تمثل الإلهة الأم يعود تاريخها إلى الألف الثالث، كما عثر في النيرب على دمي من العصرين الفارسي واليوناني. ومقارنة هذه التماثيل الصغيرة بتلك المكتشفة في بلدة المشرفة El - Mishrifé، وجدنا أنها متشابهة في تسريحة الشعر والغطاء عليه. وقد طليت هذه التماثيل أحياناً باللون الأحمر. ولم يستطع التأثير اليوناني أو المصري إخفاء أصل الدمى الفينيقي، وهو ما نراه في «المرأة الحامل» (شكل رقم ٧)، أو «المرأة ذات المروحة» التي لها شكل مومياء. يُمثل كثير من الدمى آلهة كإلهة الخصب، بعضها جالس على عرش وبعضها الآخر واقف. ويعلو الرأس «كالآتوس» يغطيه حجاب يسدل حتى الكتفين، ولوّنت ملامح الوجه بالأسود والأبيض.

التأثيرات الخارجية

سكنت سورية في أثناء الحقبة التي ندرسها شعوباً مختلفة، فقام فيها الكنعانيون منذ الألف الثالث ق.م.، وكانت فينيقيا مركز المنطقة التجاري. وتدل الآثار المكتشفة إلى علاقتها الوثيقة بمصر وبلاد ما بين النهرين. وفي الألف الثاني ولّى التأثير الحثي وحل محله الآشوري. ثم ظهر التأثير اليوناني واستمر حتى بداية القرن الأول من عصرنا. لقد أدى تنالي الحضارات إلى تبادل في أنماط الأزياء، لذلك نجد في التماثيل المكتشفة شمال سورية مثلاً تسريحات شعر آشورية وحثية.

التأثير المصريّ (الشكل ٨)

تغطي المرأة المصرية رأسها بشعر مستعار فيه صفائر، ولا نرى من الشعر الحقيقي سوى بعض الخصل المنسدلة على الجبين. ويُرْتَدُّ الشعر المستعار بأزهار اللوتس وحلى ذهبية وملونة خصوصًا عند الملكات^(١٣). نجد طريقة تسريح الشعر هذه في آنية إييلا وأوغاريت والنقوش البارزة على العاج.

التأثير الحيّتيّ (الشكل ٩)

جاء الحيثيون من شمال غرب سورية وامتدّوا نحو الجنوب. وعلى الرغم من تأثرهم الكبير بالسوريين^(١٤)، حافظوا على الغطاء الكبير الذي يُلْفَجُ الجسم به لدرء البرد الفارس. هذا ما يظهر في آثار كركميش والأصّة هويوك وتل حلف، حيث تجلس الآلهة القصيرة القامة والضحمة على عروش وتغطي شعرها بحجاب أو رداء طويل مزركش أو مرصع.

تأثير بلاد ما بين النهرين

التت في هذه المنطقة الثقافة البابلية بالنسبة والأتناضولية. هذا ما يظهر في الأختام الأسطوانية البابلية حيث نرى الآلهة السورية متوجة بقبعة يغطيها رداء على نحو آلهة الينبرج (ماري). إن صرامة القوانين الآشورية في شأن حجاب المرأة أدت إلى ندرة تمثيلها في الفن. ومن الأمثلة القليلة جدًا للنساء الآشوريات، كزوجة آشور بانيال وغيرها، نستخلص أنّ المرأة كانت تسرح شعرها كي تستطيع أن تغطيها بتاج يثبت عليه حجاب منسدل نحو الأسفل. بذلك يمكنها أن تلتف الحجاب على وجهها عند الضرورة. وهي طريقة ما تزال شائعة في الشرق.

HEUZEY Léon & Jacques, *L'Histoire du costume dans l'antiquité classique*, (١٣) *l'Orient (Égypte - Mésopotamie - Syrie - Phénicie)*, Ed. Les Belles Lettres, 1935, p. 6

SPEELERS Louis, *Le vêtement en Asie antérieure ancienne*, Ed. Jules de (١٤) Meester & Fils, Bruxelles, 1923, pp. 48-49.

التأثير اليوناني (الشكل ١٠)

بعد القرن الرابع ق.م. اختفى التاج من تسريحة الشعر وحلّ مكانه غطاء الرأس اليوناني، أي رداء طويل يغطي الوجه من الطرفين ويسدل ليفظي الكتفين والجسم. هذا ما تظهره لنا المنحوتات الحجرية والدمى الطينية المكتشفة بخرايب وصيدا.

أسباب التحجّب

بالاعتماد على ما أوردها سابقاً، يمكننا حصر دوافع التحجّب في ثلاثة: مناخية واجتماعية ودينية.

الأسباب المناخية

لم يطرأ على المناخ في سورية منذ الفترة التي ندرسها إلى أيّامنا إلاّ تغيّرات طفيفة. وهذا يجعلنا نقوم ببعض الاستنتاجات التي تقرّبنا من الواقع البعيد. ففي سورية مناخ معتدل لأنّها تقع على البحر الأبيض المتوسط مباشرة، وآخر بارد قارس في الجبال، وثالث حارّ وجافّ لوجود الصحراء. لذا تنزعت الثياب وفقاً للطقس: فمنها الخفيف ومنها الثقيل. وإلى جانب التبدّل المناخي، كان الحجاب وسيلة تحمي بها المرأة نضارة بشرتها ونعومتها من تقلّبات الطقس كالحرّ والشمس وأضرارهما، الرمل والغبار، وأخيراً البرد والصقيع. ويحمي الحجاب في الآن نفسه تسريحة الشعر من التثعث أو التفكك. لذلك وُضع فوق التيجان والقبعات. فالمناخ إذاً عامل أساسي لاستعمال الحجاب تحوّل مع الزمن من الحاجة إلى العادة.

الأسباب الاجتماعية

أ - المرأة ملك الرجل

تتبن لنا الشرائع الأثورية في اللوحين (٤١ و ٤١) أنّ المرأة ملك الرجل سواء أمتزوجة كانت أم عزباء، وعليها أن تتحجّب أمام الغرباء.

ويميّز الحجاب المرأة الحرّة عن السيّة ويحظر على الرجال الاقتراب منها. فإذا أُخِذَت امرأة أو ابنة رجل حرّ في زنى، يميّز القانون بين الرجل العالم بأنّ تلك المرأة ملكٌ رجلٍ آخر والجاهل^(١٥). فمن يعرف وضع المرأة الاجتماعيّ عليه أن يثبت عدم تحجّجها لبيان براءته، فإذا نجح في ذلك أُطْلِقَ سراحه - ووضعت - المرأة تحت رحمة زوجها أو أبيها وتصرفهما. أما إذا أثبتت المرأة أنّها كانت محتجبة، حُكِمَ على الرجل بالموت وأُطْلِقَ سراحها.

أما عن الحجاب داخل البيت، فالأستاذ دي فو De Vaux يفترض أنّ السطرين (٥٣ و ٥٤) الناقصين في اللوحة (٤٠) يتحدثان على الأغلب عن الغطاء داخل المنزل. فالحجاب مفروض على زوجة الرجل الحرّ وابته حتى في الدار أمام الغرباء. لأنّه من الطبيعيّ أن تتقل عادة التحجّج خارج البيت إلى داخله لحماية المرأة، وفي الآن نفسه، منع الرجل الغريب من اشتياء نساء ليست في ملكيته. وتنغطى الأسيرة في الشارع عندما ترائق سيّدها فقط، وتبقى داخل البيت بدون حجاب أمام الأصدقاء لأنّها ليست زوجة الرجل الحرّ بل خليلته أو أمته. فإذا أراد أن يجعلها زوجته يحجّجها أمام شهود عيان. فتغطى الرأس إذا تحوّل أساسي من حالة الأسر إلى الحرّية.

يمكن لخادمت المعبد «قديستو» أن يَكُنَّ متزوّجات أو عازبات، والفارق في وضعهنّ الاجتماعيّ عن سواهن هو انتقالهنّ من ملكية الرجل إلى ملكية المعبد. فالعازبة منهنّ لا تغطى في الخارج. لذلك نفترض أنّ هناك علامة خاصّة تميّزها على أنّها خادمة المعبد وتحميها من الرجال. وحين تتزوّج، تتقلّ ملكيتها من المعبد إلى الرجل، فتحجّج كأنيّ زوجة رجلٍ حرّ. أما العاهرة، فلا تحجّج لأنّها ليست ملكًا لأنيّ رجل، وإن تحجّجت تنال عقابًا شديدًا.

JASTROW Morris, «Veiling in Ancient Assyria», *Revue Archéologique V, série* (١٥)
14, 1921, pp. 216.

يبيّن القانون الأثوري أنّ المرأة السافرة تنمي إلى طبقة اجتماعية دنيا. ومع أنّ أسيرة الحرب لا تنغطى في الخارج، إلا حين ترائق سيديتها، نفترض أنّها ترتدي ما يُشير إلى أنّها خادمة، ويتزل بها العقاب المعتاد إن خالفت القانون. وهنا يُطرح السؤال: ما الذي يدفع الأسيرة إلى المغامرة والتحقّب أسوة بالمرأة الحرّة؟ أترأه الخوف من نظرات الرجال واشتغالهم إياها أم هناك سبب آخر؟ من المحتمل أن يكون تحجبها هو سعيها إلى الارتقاء في الطبقة الاجتماعية. إذ إنّ غاية الحجاب هي التمييز بين طبقات المجتمع، وهو عامل له دوره أيضًا في شريعة حمورابي وكذلك في القانون الأثوري، إذ تختلف عقوبات المخالفة نفسها، فتزيد شدة أو تخفّف وفقًا لطبقة الفرد الاجتماعية.

ج - حجاب العروس (الشكل ١١)

إنّ الزواج في العصور القديمة هو عملية تملك. وكلمة زواج في اللغة البابلية هي (ملك). لذلك ارتبطت تغطية العروس بالتمليك. فالرجل يملك المرأة كما يملك شيئًا نفيسًا. ومن باب الحرص على هذا الشيء الثمين يعده عن عيون الآخرين ورغباتهم. الحجاب إذاً هو علامة تملك الرجل امرأته وسيطرته عليها. وتطوّرت هذه العادة وصارت أمرًا مفروضًا على المرأة خارج المنزل وداخله. وهو أمر طبيعي في مجتمع بدائي لا كرامة للمرأة فيه، إذ إنّها ملك الرجل^(١٦). يقول الأستاذ ريناخ Reinach إنّ غطاء العروس لم يكن بدافع «الخوف من اللقاء بالآلهة» ولا «الارتباب من الشياطين» بل جزءًا من الطقوس. فاحتفالات الزواج هي بداية حياة المرأة مع الرجل. أمّا الأستاذ جاسترو Jastrow فيعتبر هذه النظرية مصطنعة لأنّ الحضارات المتألية في الشرق القديم لم تربط الزواج بالعبادة Culte^(١٧). ويضيف أنّ الزواج هو واحد من الاحتياطات التي يتخذها

JASTROW Morris, «Veiling in Ancient Assyria», *Revue Archeologique* V, série (١٦) 14, 1921, pp. 216.

Reinach C., *Cultes, Mythes et Religions*, I, 1908, p. 302. (١٧)

العروسان لمواجهة الأخطار المستقبلية المرتبطة بأول لقاء جسديّ بينهما .
لهذا نرى رفقة تتحجب أمام إسحق خطيبها حتى يوم الزفاف (سفر التكوين
٢٤ : ٦٥).

الأسباب الدينية

نلاحظ في الآثار الحثية، في النقش البارز الذي يصور التطواف
الطقسي، أنّ المرأة تغطي رأسها دائماً بحجاب سواء أملكة كانت أم إلهة .
وفي كركميش يؤكد منقوش حاملات القرابين ذلك . لكننا لا نستطيع أن
نعجزم أنّ الدين هو واحد من أسباب التحجب . فدور غطاء الرأس على
الأغلب هو تجنب اللقاء المباشر بالآلهة، والاحتماء من عيون الشيطان
وأذاه . هذا ما يفسر «حجاب الحزن» عند قدماء اليونان، حيث كان
يتحجب كلّ من الرجال والنساء لانتقاء شرّ الشياطين المحيطة بالموت .
فالخوف من الخطر هو الدافع الأول عندهم للتحجب، أما الدافع الثاني
فهو تحذير الآخرين بوجود الموت، وذلك لإبعادهم كيلا يتعرّضوا إلى شرّ
الشيطان .

ربّما كان الخوف من مواجهة الآلهة وانتقاء شرّ الشيطان هما سببا
التحجب، لكنهما فقدتا مع الزمن دافعيهما الأساسيين . ولأنّ لا شواهد
مباشرة لدينا عن الأسباب الدينية للتحجب في سورية، نستطيع القول إنّ
جميع ما ذكرناه سابقاً له دور فعال - كما هو حال البلدان المجاورة - في
فرض الحجاب على المرأة، إذ إنّها تعيش في ظروف مشابهة، وفي
حضارات تتأثر بجوارها .

خاتمة

إنّ دراستنا هذه تضعنا أمام عدّة فرضيات لشرح أسباب الحجاب في
سورية . لكن عدم وجود الإثباتات القاطعة لهذه الفرضيات يجعلنا نستنتج
أنّ الحجاب كان عادة قديمة فرضها المناخ من دون أن تكون واجباً . وجاء
الأشوريون فأعطوها قحوى جديداً ومغزى، ودعموها بعوامل اجتماعية
جعلت من العادة شرطاً وقانوناً كما يلي: الزوجة ملك الزوج والعذراء

ملك والدها. ولكي تميّز عن سراها من النساء - الخادמות والبايات - ولكي يُحجّب جمالها عن عيون الناس، قُرِضَ الحجاب عليها. فالحجاب إذًا علامة الملكيّة ووسيلة أمان في آن واحد. وإذا حاولت خادمة أو أسيرة أن ترتقي اجتماعيًا وتحتجّب عن غير استحقاق، تُضرب خمسين ضربة وتُقطع أذناها ويُغطى رأسها بالأسفلت. أما خادמות المعبد فلهنّ علامة خاصّة تميّزهنّ وتحميهنّ على الرغم من عدم تحجّبهنّ.

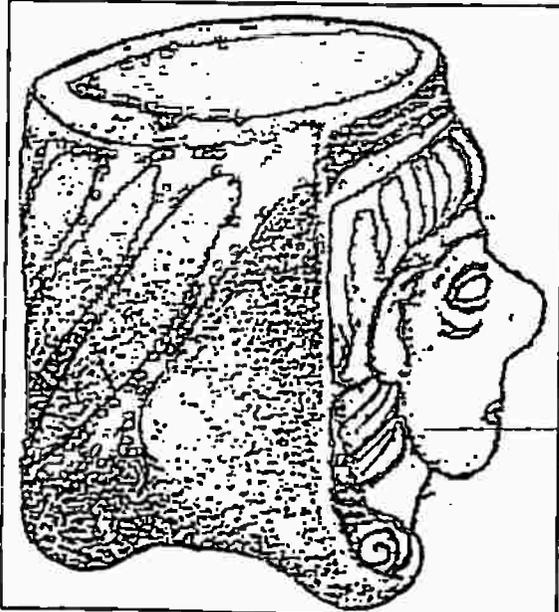
إنّ صرامة الأثوريّين تجعلنا نأخذ ما جاء في اللوحين (٤٠ و ٤١ أ) على محمل الجدّ، وألّا نعتبره نصوص تهديد وحسب خصوصًا وأنّها تحوي العقاب والثواب، وتسمح للرجل باستغلال السيّة والجارية وتحرّم الحرّة عليه. وبعد قرون عديدة، فقد الحجاب معناه الأساسي وصار صرعة أزياء خاصّة بطبقات المجتمع الراقية التي كانت تتأثر بكلّ تجديد يأتي من البلاد الأخرى أكثر من تأثر الطبقات المتوسطة والدنيا به. وحين تتقلّ عادة من بلد إلى آخر تفقد غايتها وتصبح أمرًا متفقًا عليه لتمييز الطبقات. وهكذا، صار الغطاء في سورية علامة تمييز اجتماعية، ولم يشر إلى أنّ المرأة ملك الرجل. ونتيجة لذلك، وضعت المرأة الوجيهة الحجاب لتحمي بشرتها الناعمة التي تغزّل بيا الشعراء والكتّاب من العوامل المناخية المتعدّدة. فالحجاب يشهد على مقامها الرفيع، أما الأسيرة والجارية، فهما تعملان برأس مكشوف.

وانتشرت عادة غطاء الرأس في آسيا الصغرى حتّى اليونان القديم في الألف الأوّل ق.م. فالزيتي النسائيّ اليونانيّ فيه حجاب يُبدّل أحيانًا بالـ Pēplos أو الذيل أو الرداء الذي يلتفّ به الرجال والنساء على السواء، فيُرْفَع طرفه فوق الرأس ليفضيّ تريحة الشعر.

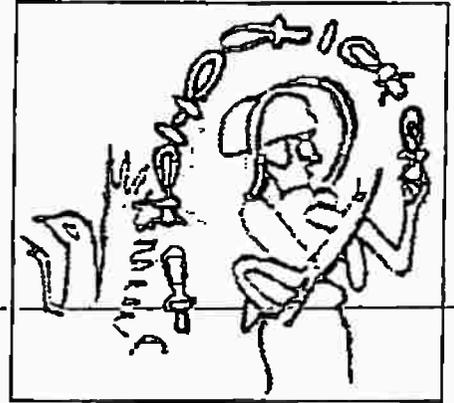
في النهاية، لا يسعنا القول إلاّ إنّ تفسير ظاهرة التحجّب يحتاج إلى بحث واستقصاء. ولعلّ التنقيبات الأثرية تلتقي يومًا أضواء جديدة تير جميع التساؤلات التي طرحناها في هذا المضمّار، وتجعلنا ندرك بوجه أفضل صلة التحجّب بإيمان المجتمعات الوثنيّة وعاداتها.



الشكل ١: نقش تدمريّ قليل البروز في هيكل بال التدمري. نجد في طرفي النقش الملوئين مجموعتي نساء محجّبات.



الشكل ٣: إناء من إيبلا (متحف حلب) ١٦٥٠ / ١٦٠٠ ق.م.



الشكل ٢: ختم أسطوانتيّ من أنطاكية (الألف الثاني ق.م.). يلاحظ التأثير المصريّ من مفاتيح الحياة، وحجاب أمام الوجه.



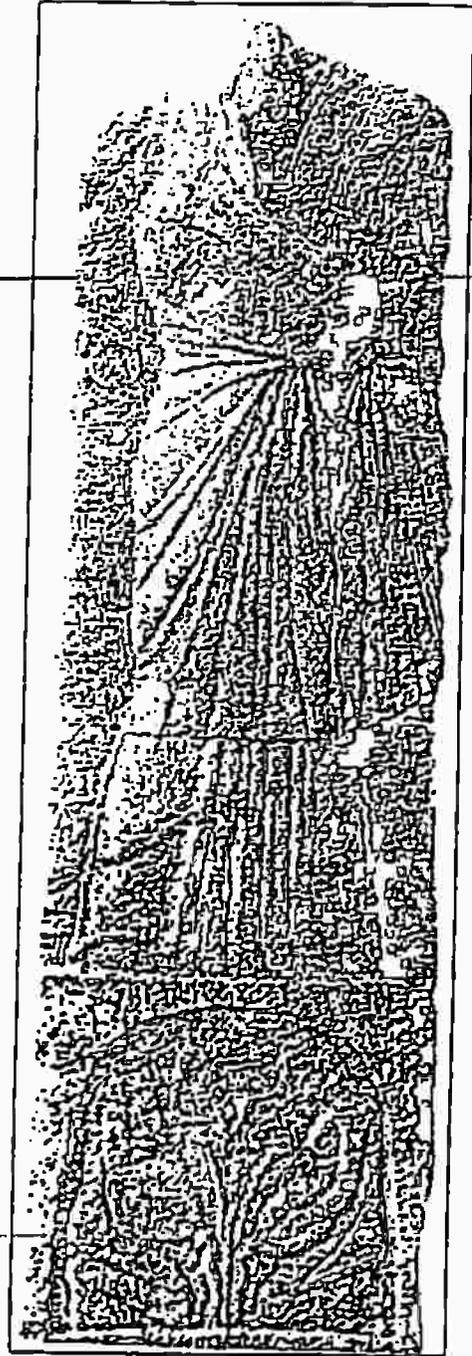
الشكل ٤: إعدام العدو أمام نساءه. رسم جداري في قصر تل أحمر. القرن الثامن ق.م.



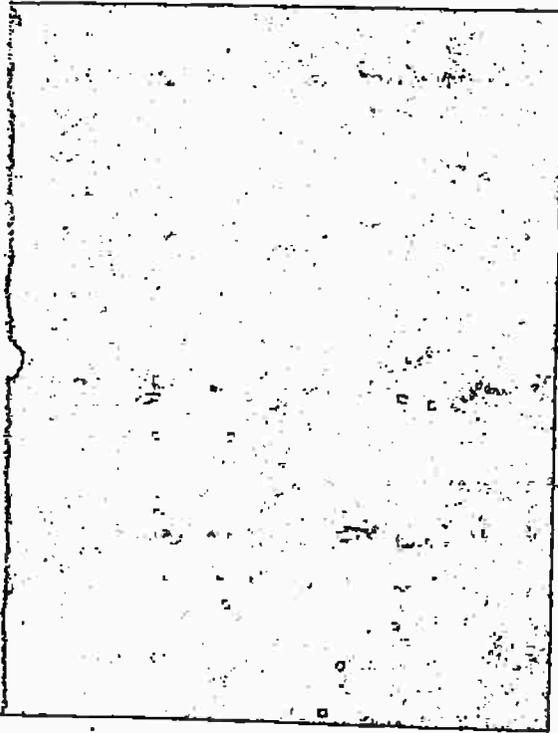
الشكا. ٥: ولبسة عاتلة، القرن الثامن ق.م. نقش بارز من مرعش (متحف إسطنبول).



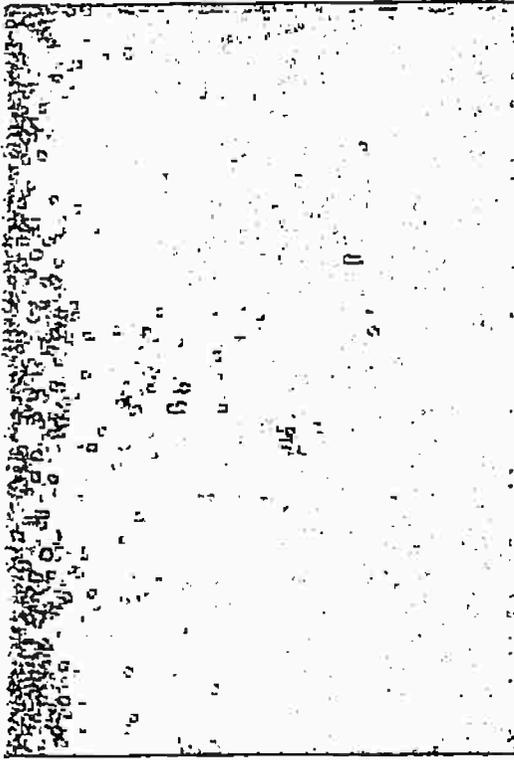
الشكل ٧: امرأة حامل. فن فينيقي (متحف اللوفر).



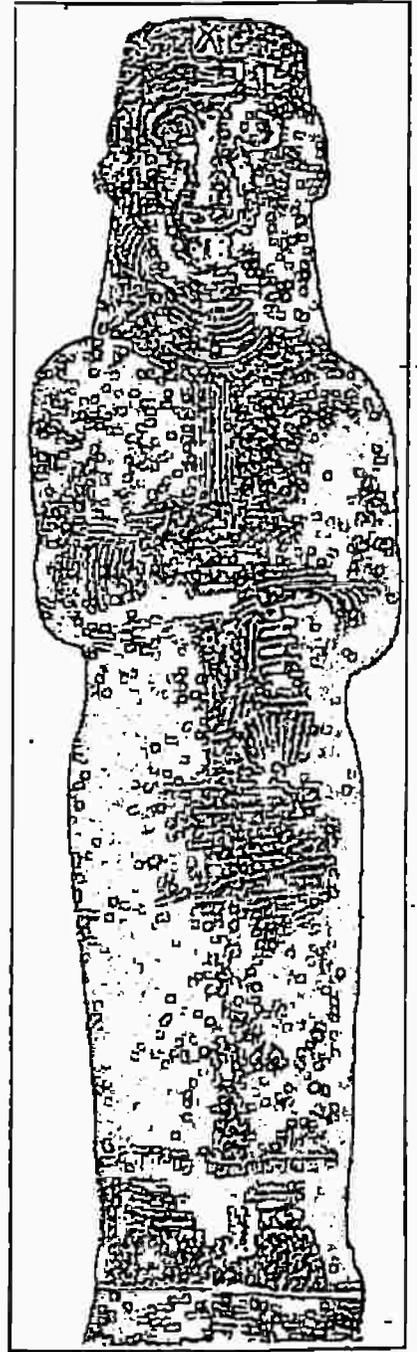
الشكل ٦: امرأة فينيقية، القرن الثالث ق.م. - نقش بارز في أم المواميد.



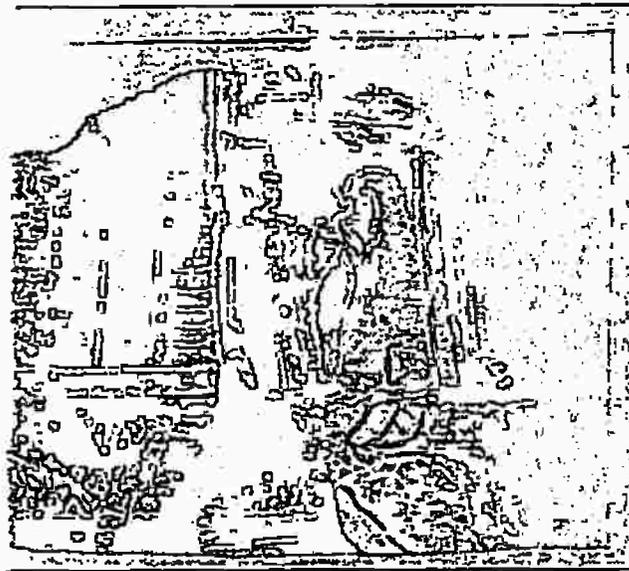
الشكل ٨: مية ذات تأثير مصري من القرن الخامس ق.م. (متحف قرطاجنة).



الشكل ١٠: دمية ذات تأثير يوناني، القرن ١١ ق.م. (متحف قرطاجنة).



الشكل ٩: تمثال كبير لإلهة واققة، تل حلف، القرنين الثاني عشر والعاشر ق.م.



الشكل ١١: زفاف صوفتي. جزء من إناه ذي نقش بارز، ق.م. (متحف أنقرة).

